المنطقة الغربية للجزائر في إستراتيجيات القوى الثلاث (العثمانيين، الإسبان، السعديين) خلال القرن 16م

The western region of Algeria in the strategies of the three powers (the Ottomans, the Spanish, the Sa'dis) during the 16th century

د. مراد قبال

mourad.kebbal@yahoo.fr

جامعة خميس مليانة

أ.أحمد شريبتي

a.cherbiti@univ-dbkm.dz

جامعة خميس مليانة

تاريخ الاستلام: 2020/03/18 تاريخ القبول للنشر: 2020/04/04 تاريخ النشر: 2020/07/03

ملخص: كانت المنطقة الغربية الحدودية من إيالة الجزائر إبان العهد العثماني خلال القرن 16م موقعا هاما متوفرا على عدد من المقومات الطبيعية والجغرافية، جعلت كل قوة من القوى الثلاث (إسبانيا، العثمانيين، السعديين)، تسعى للسيطرة عليها، نظرا لبعدها الاستراتيجي في خطط التوسع أو الاحتلال أو الاسترداد، بما في ذلك سعي العثمانيين لاسترجاع وهران والمرسى الكبير، ليكونا منطلقا للغزو، ولتقييد حركة البحرية الإسبانية، ومنعها من إقامة خطوط دفاعية متقدمة في عمق شمال إفريقيا، ولوقف طموحات محمد الشيخ السعدي بالقوة العسكرية، والحيلولة دون وقوع أي اتفاق بينه وبين الإسبان حمايةً لسواحل الجزائر.

الكلمات المفتاحية: المنطقة الغربية، الجزائر، البعد الاستراتيجي، الحدود الغربية، الاحتلال الإسباني، القرن السادس عشر.

Summary : The western border region of the attainment of Algeria during the Ottoman era during the 16th century AD was an important location that has a number of natural and geographical constituents, which made each of the three powers (Spain, the Ottomans, the Saudis) seek to control it for its strategic dimension in the plans of expansion, occupation or recovery, including In this, the Ottomans sought to restore Oran and the Great Marsa as a starting point for the invasion and to restrict the movement of the Spanish navy and prevent it from establishing advanced defense lines deep in North Africa. And to stop Muhammad al-Sheikh al-Saadi's ambitions of military force and to prevent any agreement between him and the Spanish to protect the coast of Algeria.

Key words western region, Algeria, strategic dimension, western borders, Spanish occupation, Sixteenth century.

مقدمة: عرفت منطقة شمال إفريقيا مع بداية القرن 16م، عددا من الأحداث التاريخية، أدت إلى تراجع الدور العسكري للقوى الإسلامية – القائمة آنذاك– في الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط، هذا التدهور كان نتاج صراعات سياسية بين الدويلات الثلاث (بني مرين، بني زيان، وبني حفص)، مما أدى إلى تبدد القوة الإسلامية، وتحوّل منطقة المغرب الأوسط بوجه خاص، إلى فسيفساء سياسية، تجسدت فيها معالم التفتت والنزاع والفرقة.

ولقد استغلت القوى المسيحية هذه الظروف لاحتلال عدد من الموانئ الهامة، بغرض نهب ثروات البلاد واضطهاد المسلمين، غير أن هذه الأوضاع لم تلبث طويلا، حيث اتخذت منحى جديدا، تجسد في ظهور الجهاد البحري، على يد الأخويين بربروسا (عروج وخير الدين)، اللذان قدما دعمهما لسكان المغرب الأوسط، وقدما لهم العون والنجدة، قصد تحريرهم من الهيمنة الإسبانية والعمالة الزيانية.

وسرعان ما تكللت هذه المساعي التحررية بالنجاح، حيث بدأت تؤسس لظهور دولة قوية، من خلال السيطرة على مدينة الجزائر، التي كانت النواة الأولى للإيالة، وليكتب لهذه الدولة الاستمرار والبقاء تحتم على قادتها اتخاذ عدد من القرارات الهامة، وخوض سلسلة من الصراعات والحروب في المنطقة الغربية القريبة من الحدود، لغاية

التخلص من الخطر الإسباني ولو مؤقتا، والسيطرة على مدينة تلمسان عاصمة الدولة الزيانية، والتي كانت منطقة ذات بعد استراتيجي، لضمان الاستقرار السياسي، خاصة بعدما تحولت في أيامها الأخيرة إلى بؤرة لتذكية الحروب داخل جسد القطر الجزائري، ومدخلا يستغله الغزاة للحفاظ على وجودهم في المنطقة، التي كانت على قدر كبير من الأهمية الجغرافية والاقتصادية لعدد من الأطراف الخارجية.

فلهذه المنطقة الغربية الحدودية أهمية من ناحيتين الجغرافية الطبيعية والاقتصادية، هذه الأهمية جعلتها محل تنافس القوى الخارجية لتنفيذ مخططاتها التوسعية، بمن فيهم العثمانيين، الذين سعوا إلى بسط نفوذهم، ومجابهة التدخل السعدي على الحدود، والذي تحول إلى نزاع عنيف ومستمر مع الجارة الغربية.

ومن هذا المنطلق، فإن الإشكالية الأساسية لهذا المقال تتمثل في: ما هي الخطط والوسائل التي اعتمدتها القوى الثلاث (العثمانيون، الإسبان، السعديون) للهيمنة والسيطرة على المنطقة الغربية للجزائر ذات البعد الاستراتيجي الهام عسكريا وسياسيا واقتصاديا؟.

وقد استعنا بمنهج البحث التاريخي للإجابة على هذه الإشكالية، وغيرها من التساؤلات الفرعية، من خلال استرجاع الأحداث التاريخية الهامة التي مرت بها المنطقة، بطريقة علمية للكشف عن دقيقها وجليلها، بغية التأكد من صحتها، وفهم ملابساتها، وفقه دلالاتها

المبحث الأول: الأهمية الجغرافية والاقتصادية للحدود الغربية:

تمتلك المنطقة الغربية القريبة من الحدود المغربية، بما في ذلك أحواز مدينة تلمسان، موقعا جغرافيا هاما، وذلك بفضل عدد من العوامل الطبيعية والاقتصادية، التي خوّلتها لتكون مركزا سياسيا للدولة الزيانية، ومحل نزاع وأطماع عدد من القوى الخارجية، التي كانت تسعى للاستحواذ على المغرب الأوسط، واتخاذه معبرا نحو العمق الجزائري.

المطلب الأول: الأهمية الجغرافية والطبيعية:

من ضمن خصائص السطح التي تميزت بها المنطقة المحصورة بين وهران شرقا وصولا إلى واد ملوية غربا، إشرافها على القسم الغربي للبحر الأبيض المتوسط، بطول ساحل يفوق 200 كم، مما جعل موانئها أقرب الموانئ إلى المدن الأندلسية بالنسبة للمغرب الأوسط.

فالمسافة المقدرة بين موانئ المنطقة الغربية وموانئ إسبانيا لا تتجاوز 450 كم، كما أن المنطقة تحوي مجموعة من الخلجان الصغيرة، التي استعملت في إقامة عدد من الموانئ، والتي أمكن استعمالها كمركز تبادل تجاري، كميناء المرسى الكبير، ووهران، وهنين، والغزوات، وإنشاء مراكز عسكرية متقدمة، تشرف على الحدود البحرية مع إسبانيا، مما يُمكّن من توظيفها لغزو السواحل الإيبيرية، ومراقبة حركة الملاحة القريبة من مضيق جبل طارق الاستراتيجي، واستعمالها كمحطات إمداد عسكري، وطريقا مهما لاختصار المسافة بين مدينتي الجزائر وتلمسان، قصد تعزيز السيطرة في المناطق الداخلية البعيدة.

ومن المميزات الطبيعية للساحل الغربي، احتواؤه على تكوينات مختلفة من التضاريس، كالمرتفعات التي يتراوح علوها ما بين 100- 600م، كجبل مجاجو الذي يحيط بالمرسى الكبير جهة الجنوب، ويحد وهران من جهة الغرب، وجبل "ونهاصة" الذي يحيط بمرسى هنين من الجنوب، وجبل "مطغرة" – نسبة للقبيلة التي سكنته–، أو جبل "تيانت" الذي يحيط بمرسى الغزوات[1].

ولقد شكلت هذه التضاريس جدارا طبيعيا عازلا، يصعب اختراقه بين الساحل والمناطق الداخلية التي تشرف على تلمسان، مما وفر الحماية عبر الأزمنة للجزائريين النازحين من الشريط الساحلي نحو الداخل، خاصة خلال القرن 16م، وبوجه أخص بعد احتلال مدينة وهران من طرف الإسبان سنة 1509م، وهذا ما تؤكده المصادر التاريخية التي تحدثت عن نزوح سكان مدينة هنين نحو الداخل خوفا من التعرض للهجمات الصليبية الإسبانية[2].

بل أدت هذه التضاريس – وحتى قبل احتلال[3] وهران– دورا دفاعيا مهما، فبعد سقوط المرسى الكبير سنة 1505م، حاول قائد الحامية الإسباني "دون دياقو" سنة 1507م، استكشاف الطريق من المرسى نحو تلمسان، وبما أن جيشه كان مؤلفا من عدد كبير من المشاة والفرسان، فلم يكن الطريق الممهد عبر وهران خيارا مناسبا، وذلك خوفا من اكتشاف مسار الجيش من طرف حامية وهران، فتقرر سلوك طريق الجبال والشعاب ليلا لتجنب مراكز المراقبة، ولياغت القبائل العربية في "مسرغين" بهجوم خاطف، تمكن من خلاله من أسر وسبي عدد كبير من المسلمين وغنم الكثير من الأسلاب، إلا أن هذا النصر لم يكن ليدوم في رحلة العودة عبر الجبال، التي تحولت إلى مقبرة للجيش الغازي الذي أحاط به العرب، ولم ينجو منه إلا خمسة مقاتلين، من بينهم قائد الحامية الذي ولى هاربا نحو أسوار المرسى الكبير تاركا جنوده للقتل والأسر[4].

وفي مثل هذه المعركة غير المتكافئة، كانت ستكون الغلبة حتما للقوات الإسبانية، لو كان ميدانها أرضا منبسطة، بحكم نوعية التجهيز والتنظيم، لكن هذا العامل الغائب عند المشاة والمقاتلين العرب، تم تعويضه بعنصر المفاجأة وطبيعة الأرض، التي منعت القوات المدافعة من تنظيم صفوفها بطريقة مثالية، ومنعتها من استغلال سلاح المدفعية، الذي كان العامل الحاسم في معارك الإسبان، والراجح أن هذا السلاح لم يكن حاضرا أساسا في هذه المعركة الخاطفة، لصعوبة نقله في المناطق الوعرة.

أما المناطق الداخلية الأكثر قربا من الحدود، فتتميز هي الأخرى بسلسلة من الهضاب والجبال المحيطة بتلمسان، التي يتراوح ارتفاعها من 400– 1200م، لكن هذه العوازل الطبيعية تبدأ في الانخفاض تدريجيا، لتتحول إلى سهول غرب منطقة مغنية، لتمتد نحو العمق المغربي مرورا بمدينة وجدة، بين سلسلتي جبال الريف وجبال الأطلس الأوسط، وصولا إلى فاس. ويقدر ارتفاعها ما بين 400– 600م، هذه المعابر كانت منفذا هاما للقوافل التجارية المتنقلة بين فاس وتلمسان، ومسلكا للجيوش المغربية الزاحفة نحو تلمسان، والعثمانية الغازية لفاس في كثير من الوقائع والأحداث[5].

المطلب الثاني: الأهمية الاقتصادية:

لاشك أن منطقة الحدود الغربية، وعلى رأسها مناطق وأحواز تلمسان، امتلكت عددا من المقومات الاقتصادية المهمة، هذه المقومات تنوعت بين الزراعية والصناعية والتجارية، فتلمسان كانت تجبى إليها من كل أنواع السلع القادمة عبر القوافل التجارية، من منتجات الصحراء مرورا بتوات، وصولا إلى تمبكتو.

وفي المقابل، كانت تلمسان المحطة الأولى للسلع القادمة من جنوب إيطاليا وفرنسا وإسبانيا، قبل تصديرها نحو الجنوب، وكذا القوافل المخترقة لسهل شلف والمتوجهة نحو فاس، كل هذه ظروف استفادت منها المنطقة لتحقيق الازدهار التجاري، وفي هذا الصدد نكتفي بالإشارة إلى لمحات من هذا الدور الاقتصادي للوقوف على أهمية ومكانة المنطقة[6].

أما في الجانب الزراعي، فقد حققت هذه المنطقة اكتفائها الذاتي، وذلك من خلال إنتاجها لمحاصيل متنوعة، كالخضر والفواكه بأنواعها، والتي شدت بوفرتها ولذة فواكها الرحالة الإفريقي حسن الوزان الذي وصفها بقوله: «...حيث الكروم المعروشة الممتازة تنتج أعنابا من كل لون، طيّبة المذاق جدا، وأنواع الكرز الكثيرة، التي لم أر لها مثيلا في جهة أخرى، والتين شديد الحلاوة، وهو أسود غليظ طويل جدا... والخوخ والجوز واللوز والبطيخ...»[7].

فضلا عن هذا، تنتج المنطقة أهم المنتجات الزراعية الإستراتيجية، كالقمح والشعير، اللذان كانا يصدران لعهد قريب عبر الحامية الإسبانية من وهران، مزودة بذلك إسبانيا منذ نهاية العهد الزياني وإلى غاية العهد العثماني، وكانت كل السهول المحيطة بتلمسان منتجة لأجود أنواع الحبوب.

أما الصناعة فازدهرت هي الأخرى داخل مدينة تلمسان والمدن القريبة منها كندرومة، فكانت تلمسان على قدر عالي من التنظيم، تضاهي في تنظيمها مدينة فاس، فأسواقها كانت تدر أرباحا كبيرة، تعود بالنفع على الجمارك، وتنتعش منها خزينة

المملكة، بفضل التبادل التجاري مع الأجانب. ولعل من بين أشهر أسواق تلمسان انتعاشا "سوق القيصارية"، الذي تتم فيه المعاملات تحت رقابة الجمارك[8].

هذه الظروف الاقتصادية، جعلت من المملكة الزيانية مملكة متعددة الموارد، وهو ما جعلها محل أطماع من طرف الدويلات المجاورة، لما آلت إلى الضعف والسقوط.

المبحث الثاني: المنطقة الغربية الحدودية في استراتجيات القوى الثلاث:

المطلب الأول: الإسبان:

منذ قرون عديدة، تاق ملوك الإسبان لطرد المسلمين من الأندلس، وهو ما تحقق لهم سنة 1492م بسقوط غرناطة، لكن هذا الإنجاز المبني على الاضطهاد الديني، لم يشبع رغبات البابوية، التي طمحت لاسترداد مجد الإمبراطورية الرومانية، من خلال السعي إلى تنصير مسلمي القسم الغربي من البحر المتوسط بقوة السلاح، باحتلال أراضيهم، وإرغامهم على الإذعان.

احتاج هذا الهوس الديني إلى إمكانيات، وجيوش متعطشة للغزو والسلب، وهنا تتداخل المصالح الدينية والسياسية بين ملوك قشتالة والكنيسة، التي راحت تثني على ملكة كرست حياتها لهدف إبادة المسلمين، وما وصية "إيزابيلا" باحتلال سواحل المغرب في الحقيقة، إلا مشروع من المشاريع السياسية تحت غطاء الدين، للاستفادة من مقدرات أوروبا لصالح دوافع شخصية، طامحةً إلى توسيع أراضيها[9].

ولقد فهم ملوك إسبانيا أن أمنهم مرهون بمدى قوة المسلمين في سواحل شمال إفريقيا، وأدركوا أن صدمة غرناطة لم تفارق أذهان العرب، فإسبانيا التي تكبدت خسائر فادحة في سنوات حروب الاسترداد، لا يمكنها أن تسمح بعودة فتح جديد.

وقصد منع المسلمين من تهديد سواحلهم، بادر ملوك إسبانيا إلى احتلال موانئ بلاد المغرب، لمنع أي نشاط عسكري، وتحويلها إلى مراكز دفاعية تعزل شمال إفريقيا عن البحر الأبيض المتوسط، والغاية من ذلك جعل القسم الغربي من المتوسط بحرا إسبانياً خالصا،

خاصة بعد سيطرت إسبانيا على أجزاء من جنوب أوروبا وإيطاليا، وبذلك تضمن التحكم في الحركة الملاحية التي تعود عليها بالنفع الاقتصادي.

وكجزء من هذا المخطط الكبير، الذي رُسم في البلاط الملكي، وسهر على تنفيذه الكاردينال "خمينيس"، كان ميناءا المرسى الكبير ووهران، حلقة من الحلقات المهمة في فرض الحصار على الممالك الإسلامية، بما في ذلك المملكة الزيانية المتهالكة.

وليس من الغريب أن يستفيد الغزاة من تجارب الماضي لحماية وجودهم، فأعادوا استنساخ تجربة ملوك الطوائف، ولو بشكل مصغّر مع مملكة بني زيان، التي تنازع أمراؤها على العرش، من خلال دعم طرف ضد طرف آخر، إما لإقامة كيان تابع لهم، يضمن استمرارهم في وهران، أو السهر على استمرار انقسام المملكة الواحدة إلى عدد من الإمارات، ليسهل التحكم في شؤونها، وحصد مقدرتها المالية، عبر فرض الضرائب عليها، وهو ما نجده في بعض المصادر التاريخية، التي تحدثت عن دعم الإسبان لبعض القبائل العربية، كبعض القبائل من بني عامر، التي استفدت من حلفها مع النصارى، وفي المقابل استفاد الغزاة من خيانتهم في زمن الحرب، للقتال إلى جانبهم ضد الأتراك والعرب، وتزويدهم بالمؤن الغذائية والتجسس لصالحهم[10].

لقد كانت الإستراتيجية العسكرية للإسبان، مبنية على الهجوم لأجل الدفاع كخطوة إستباقية، وهذا التخطيط ينِمُ عن معرفة تامة بقوة المسلمين في البرّ و البحر، وهو ما اختبره قادة الإسبان، ومنهم " أندريا دوريا"، لما انهزم هزيمة ساحقة في معركة بروزة سنة 1538م، أمام قائد البحرية العثماني خير الدين بربروسا[11].

المطلب الثاني: الأتراك:

بعد استقرار بحارة عروج وخير الدين في مدينة الجزائر سنة 1516م، اتخذوا منها قاعدة بحرية للانطلاق في الغزوات البحرية ضد القوى المعادية، بما في ذلك الإسبان، بفضل موقعها الاستراتيجي الواقع في وسط الساحل الممتد من الشرق إلى الغرب.

لكن وبالرغم من تمكن الأخوين بربروسا من مواجهة التمردات الداخلية والسيطرة عليها، إلا أن التواجد الإسباني في غرب الجزائر، وتحالفه عنوةً مع الزيانيين، كان خطرا داهما يهدد أمن مدينة الجزائر، وهو ما أكد عليه خير الدين بربروسا:« لقد كانت تلمسان أكبر بلد في الجزائر، وفتحها في غاية الصعوبة، وكان معلوما أنه ما لم تفتح تلمسان، فإن الجزائر لن تعرف الاستقرار»[12]، فالإسبان أبقوا على مملكة تلمسان، تجنبا لاستثارة النزعة الجهادية الشاملة ضدهم، كما استغلوها لخدمة مصالحهم بطريقة أقل تكلفة ومخاطرة، مقابل دعم الطموحين للعرش، وهذا التحالف يعرقل عملية التحرير الشاملة.

لقد فهم عروج سنة 1518م، خطر استمرار وجود مملكة بني زيان، وتحالفها مع أعداء المسلمين، الذين كانوا حتما يسعون للإطاحة بمدينة الجزائر عبر البرّ، من خلال الاستفادة من القوى البشرية للقبائل العربية المتواطئة مع السلطان الزياني أبو حمو الثالث، كما أن قدرات عروج لم تكن لتسمح له بشن حرب للإطاحة بها، وهو ما قد يخلق له الكثير من الصعوبات، التي تنعكس سلبا على وجوده في الجزائر، لذلك وظّف نفس الأسلوب الذي انتهجه الإسبان، من خلال محاولته فرض التبعية على الزيانيين، وذلك من خلال تعيينه لملك جديد من بني زيان، يكون حليفا لمدينة الجزائر، قصد الاستفادة من الإمكانيات المادية والبشرية للمملكة المتداعية، وتوجيهها ضد الأعداء الحقيقيين، بالاستعانة بسكان تلمسان الذين استنجدوا به.

كانت نية عروج جعل مدينة تلمسان قاعدة لضرب حصن وهران من جهة البرّ، وهو ما يجعله قادرا على حصارها من جهة الجبال والبحر، بهدف قطع الإمدادات عنها، هذه الإستراتيجية تنبّه لها الإسبان، الذين استدركوا الأمر قبل استقرار عروج في تلمسان بعد فتحه لها سنة 1517م، فدعموا السلطان الزياني الهارب بجيش إسباني، مدعما بقوات عربية من أحواز وهران.

وقد التحق الجيش الإسباني بجيش أبو حمو الثالث ومن معه من العرب، وأطبقوا الحصار على قلعة تلمسان، التي لم يتمكنوا منها رغم كثرتهم، إلا بعد مفاوضات أفضت إلى انسحاب عروج، ثم غدروا به، حين لاحقته قوة إسبانية بمنطقة بني سناسن، فقاتلها قتالا شديدا بطوليا، حتى استشهد، وقد شهد له بالبسالة مؤرخي الطرف الآخر[13].

باتت خطط العثمانيين في الجزائر واضحة مفهومة – بعد غزو تلمسان– عند ملك إسبانيا شارلكان، الذي أمر أن ينتقل جيشه من الدفاع نحو الهجوم، في إطار الصراع من أجل البقاء، فاستغل نكسة الجزائر بفقد قائدها الكبير عروج، ليتفق مع ملك تلمسان الجديد عبد الله الثاني، الذي تولى عرش تلمسان بعد وفاة أبو حمو الثالث، على غزو مدينة الجزائر.

كان الاتفاق بين الطرفين قائما على غزو جيش تلمسان للمدينة من جهة البر، وفي المقابل يغزوها الإسبان من ناحية البحر، ولقد توقع خير الدين خطوة الإسبان المقبلة، فقرر الانضمام للدولة العثمانية سنة 1518م، لجعل الصراع أكثر تكافئا، فكان له ما أراد، بأن أقرّه السلطان سليم بيلرباياً على الجزائر، هذا القرار كان نقطة تحوّل في تاريخ المغرب الأوسط، بإيجاد ظروف جديدة، ستساهم في تغيير موازين الصراع المخطط له من طرف قادة الإيالة.

وبعيدا عن مملكة تلمسان، لم تكن نية خير الدين أمير الجزائر الجديد، من وراء إخضاع المنطقة الغربية القريبة من الحدود، طرد الإسبان من السواحل وتوحيد البلاد فقط، بل تطلّع أيضا لإخضاع المغرب الأقصى، أو تحقيق تبعية الوطاسيين للباب العالي بأي شكل من الأشكال، لما رأى تكالب البرتغاليين والإسبان على المغرب الأقصى.

كما أبدى خير الدين تخوّفه من ردّ فعل سلاطين المغرب اتجاه العثمانيين، ذلك أن بعض قبائل المغرب الأوسط كانت تميل لسلطان فاس، وتعتبره أوْلى بالبيْعة من الأتراك لعدّة اعتبارات، خاصة بعد تلاعب الإسبان بسلاطين تلمسان، ومقتل عروج، وهو ما نلمسه في كلام بربروسا: « ...في هذا كان سلطان المغرب يعتبر أكبر ملوك العرب في

إفريقيا، كنت أعتقد أنه ما لم يتم إخضاع سلطان المغرب، فإنه من المستحيل بسط سيطرة الأتراك على إفريقيا...»[14]، ولمسألة الميل هذه خلفيات تاريخية، تعود إلى عهد حروب الزيانيين مع المرينيين، ووقوف بعض القبائل إلى جانب سلاطين المغرب، كقبيلتي توجين ومغراوة[15].

لم تكن الظروف سانحة لبيلرباي الجزائر لفرض سلطته على المغرب، ما لم ترضخ تلمسان لمدينة الجزائر، باعتبارها الحصن المنيع بقلاعها لمراقبة الثغور، ومراقبة التطورات الداخلية في المغرب الأقصى، لكن بحلول سنة 1540م، طرأت العديد من الأحداث، أعقبتها صراعات داخلية على العرش بين أفراد أسرة بني زيان، جعلت المملكة تتمايل تارة جهة الأتراك، وتارة جهة الإسبان، بمنحهم عهود والتزامات مقابل عرش متداعي.

فلم يكن العثمانيون ليتقبلوا خسارة تلمسان من جديد، خاصة بعد ازدياد الخطر الإسباني، باحتلالهم مرسى هنين سنة 1531م[16]، لإضعاف المملكة الزيانية، تمهيدا لاحتلالها، وفي ظل رغبة التلمسانيين في الانضمام إلى الجزائر، تدخلَ بيلربايات الجزائر لحسم الصراع، بتنصيب أمراء موالين لهم، فأصبحت تلمسان في عهد حسن بن خير الدين جزء من الإيالة، حتى تاريخ ضمّها من طرف صالح ريس سنة 1554م، وبالتالي إنهاء الوجود الزياني.

المطلب الثالث: الدولة السعدية:

لما آل أمر المغرب الأقصى في عهد الوطاسيين إلى الضعف، الذين فشلوا في استرداد ثغور المغرب من يد البرتغاليين والإسبان، وانشغلوا بمقارعتهم في الشمال، عمت الفوضى السياسية، وانتشر الاضطراب والتمرد، وخلت المناطق الجنوبية من سلطة حاكم فاس، فحينها احتاج الناس إلى من يحرك فيهم عزيمة الجهاد ضد البرتغاليين، لاسترداد الثغور الساحلية المحتلة، فاجتمعت قبائل سوس على شخص أبي عبد الله القائم سنة 1510م، وبويع أميرا ليقود المجاهدين ضد الغزاة، فحقق عددا من الانتصارات، لتظهر إلى الوجود الدولة السعدية.

بعد وفاة أبي عبد الله القائم، آلت البيعة لابنه أبي العباس الأعرج، الذي أخضع عددا من مناطق المغرب، منها مراكش، ولما وقعت بينه وبين أخيه الأصغر محمد الشيخ فتنة، استجاش محمد على الأعرج بقبائل سوس، فقبض عليه، وسلبه الإمارة، ثم أتم فتح حصون بني وطاس، وجرت بينه وبينهم معارك طويلة، حتى غلبهم على عاصمتهم فاس سنة 1549م، وقُبض على الوطاسيين إلا أبو حسون، فقد نجا بهربه نحو المغرب الأوسط[17].

أدرك السعدي – بعد سقوط مدينة فاس– أن الطريق نحو تلمسان باتت سالكة، وينبغي عليه استغلال فرصة انشغال الأتراك في الجهاد البحري، إذا ما أراد توسيع مملكته، والاستفادة من مقدرات تلمسان الاقتصادية، وما يتبعها من حصون وأراضي خصبة، بما في ذلك السيطرة على الطريق التجاري.

كما أدرك أن مدينته التي فتحها، لن تكون بمأمن، إن لم يبادر إلى تلمسان ويفتحها، تحسبا لعودة أبو حسون بالنجدة العثمانية، لاستعادة عاصمة ملكه، فقد كان على دراية تامة، بأن العثمانيين لن يفوتوا فرصة كهذه، للتدخل في شؤون المغرب الأقصى، وهنا نخلص إلى أن ما أقدم عليه محمد الشيخ من غزو تلمسان، إنما من باب الاحتراز والاطمئنان على عمق مملكته، وسعيه للتمركز في موضع متقدم، يمكّنه من مراقبة الأتراك عن قرب.

فقد تحدثت المصادر عن نظرة السعدي إلى الأتراك، على أنهم دخلاء ينبغي طردهم من المغرب الأوسط[18]، والواضح أنه لم يُراع رابطة الدين، واشتراك الطرفان في الدفاع عن المغرب الإسلامي في وجه الخطر المسيحي المحدق، بل كان أكبر همه أن يكون سلطانا على المغربين الأقصى والأوسط، ولا ندري هل كان يطمح لإقامة دولة موحدة للمغرب، كما حصل في زمن الموحدين، أم أنه اعتبر تلمسان إرثا من إرث أراضي الدولة المرينية البائدة، فالصراع على تلمسان كمنطقة حدودية، فجّر صراعا داميا، جعل إيالة الجزائر

مهددة من طرف قوتين، قوة برية من طرف ملك المغرب الأقصى، وقوة بحرية تسعى لسحق مدينة الجزائر، من طرف ملك إسبانيا، جراء ما لحقها من هزائم وخسائر فادحة.

المبحث الثالث: الصدام الجزائري السعدي على الحدود:

بعد سقوط مدينة فاس، واستتباب أمر المغرب للسعديين، جهّز محمد الشيخ سنة 1550م جيشا كبيرا، وغزا به تلمسان، التي امتنعت عنه، فحاصرها حصارا خانقا دام تسعة أشهر، ومن شدة الكرّ على الحصون، واستماتة المتحصنين، قُتل ابنه محمد الحران، فزاده ذلك حقدا على الأتراك، حتى دخلها في شهر جمادى الأولى من سنة 957هـ (1550م)، وبدخوله تلمسان، بات الطريق البرّي عبر السهول نحو مدينة الجزائر سالكا، فاحتل في طريقه عددا من الحصون، بما في ذلك حصن مستغانم، وتقدم نحو وادي شلف.

وقبل احتلال تلمسان بأيام، كان حسن بن خير الدين قد جهز جيشا ضخما، مكوّنا من فرسان زواوة، تحت إمرة سلطان قلعة بني عباس، والآلاف من رماة البنادق، لحصار مدينة وهران وتحريرها، لكن وبالقرب من وادي شلف، بلغه أن الجيش السعدي قد احتل مستغانم، ويزحف نحوه بجيش كبير لاحتلال مدينة الجزائر.

وبعد تشاور عُيّن حسن قورصوه قائدا على الفرق العسكرية، وتلقى أمرا بإقامة خط دفاعي، بمحاذاة وادي شلف، لصدّ الهجوم المغربي. وأمام هذه القوة الهائلة والاندفاع المغربي، كان الفوز بالمعركة أمرا ضروريا محتوما، فلو انهزم الأتراك في هذه المعركة، لتمكن السعدي من الوصول إلى أسوار عاصمة الإيالة.

اصطدم الطرفان في معركة عنيفة، حسمت فيها فرقة الرماة الجزائريين المعركة، وجعلت الغزاة يتراجعون نحو مدينة مستغانم، فتبعهم الجيش الجزائري واستخلصها منهم، فأدرك محمد الشيخ أن ردّ الفعل الجزائري سيزيد في حدّة الصراع، ولن يكتفي الجزائريون باسترجاع تلمسان، بل ستكون وجهة الحملة القادمة مدينة فاس نفسها، لذلك قرر محمد الشيخ إعادة تشكيل خطوطه، والتقدم بجيش مؤلف من عشرين ألف مقاتل، تحت إمرة

ابنه عبد القادر، نحو تلمسان بأسرع ما يمكن، لاعتراض حسن بن خير الدين، ومنعه من اجتياز ملوية، وغير بعيد إلى شمال مدينة تلمسان بمنطقة "سيدي علي"، التحم الطرفان في معركة طاحنة، أسفرت عن انهزام الغزاة، وإرجاعهم غرب واد ملوية.[19]

المطلب الأول: المفاوضات الجزائرية السعدية من أجل وقف النزاع الحدودي:

حقق حسن بن خير الدين في هذه المعركة، عددا من النتائج الهامة، والمكاسب التي أراد توظيفها في الصراع، منها استرجاع تلمسان وضواحيها، وقطع الطريق على المغاربة، وكسر شوكتهم واندفاعهم، خاصة بعد مقتل ابنا محمد الشيخ اللذان ساندا والدهما طوال حروبه ضد البرتغال والوطاسيين، كما أراد الضغط على محمد الشيخ، لإرغامه على الاعتراف بالدولة العثمانية، والدعاء للسلطان على منابر فاس، وإجباره بطريقة غير مباشرة، على وقف مخططاته التي تستهدف المناطق الغربية للجزائر، من خلال الاتفاق على ترسيم الحدود، والغاية من ذلك، إجلاء الطرف السعدي من خارطة النزاع في المنطقة الغربية، دون إراقة الدماء، وتبديد القوى في أهداف لا طائل منها، لأجل التفرغ للإسبان في حصن وهران.

ولأجل ذلك، انتُدب لهذه المهمة الدبلوماسية الشيخ "علي بن محمد الخروبي الطرابلسي القارقاريشي"[20]، وذلك سنة 959هـ/ 1552م، الذي كان من بين أشهر علماء المغرب الأوسط في زمانه و من أفصحهم كلاما.

وتشير المصادر إلى أنه وفد إلى فاس مبعوثا من طرف بيلرباي الجزائر، وبعضها تشير إلى أن التكليف إنّما كان من طرف السلطان العثماني سليمان القانوني، وبعد شدّ وجذب بين الطرفين في الزيارتين اللتان زار فيهما الوفد المغرب[21]، رفض محمد الشيخ طلب البيلرباي والسلطان سليمان بالدعاء للعثمانيين، والإفراج عن الأسرى من عائلة الوطاسيين، ووافق على تحديد الحدود، من الساحل إلى أعتاب الصحراء بوادي ملوية كحد فاصل.

فالسلطان السعدي كان يرى في طلب الأتراك إذلالا له، وإنقاصا لسلطته على المغرب، وتبعية وخنوعا، وتدخلا في شؤون مملكته، لكن يبدو أن هذا الردّ لم يقنع العثمانيين، واعتبروه عنادا يهدد مصالحهم، ويمنعهم من مشروع غزو إسبانيا، العدو الأكبر الذي يهدد أمن الإيالة.

والواضح أن حكام الجزائر كانوا يفاوضون من موقع قوة، فمحمد الشيخ الذي أوصد في وجههم أبواب التدخل في المغرب الأقصى، بعدما هدّد الحدود، كان يدرك تماما أن العثمانيين سيستغلون كافة السبل للضغط على مملكته، لإبقائه بعيدا عن المنطقة الغربية.

فبعد "حسن بن خير الدين"، تولى زمام الإيالة "صالح ريس"، الذي سعى إلى الحفاظ على وحدة الجزائر، ولم يهمل في نفس الوقت دوره الجهادي، المتجسد في التضييق على الإسبان والبرتغاليين. ففي سنة 1553م، غزا جزر البليار وسواحل إسبانيا، لكن من حسن الصدف، أن بلغه خروج حملة برتغالية نحو المغرب، مجتازة للمضيق، فترصدها وأسر من فيها من العتاد والرجال، ومعهم أبو حسون الوطاسي، الذي حمله معه إلى الجزائر، واستمع منه إلى قصة هروبه من السعديين. وبما أن الوطاسي كان متلهفا للعودة للعرش، فقد طلب من صالح ريس دعمه لاسترجاع عرشه، مقابل عدد من الشروط، أهمها التبعية للدولة العثمانية، وبعد إبرام هذا الاتفاق، سارت الجيوش بحرا وبرا[22].

وفي هذا الإطار، وصلت في شهر سبتمبر من نفس السنة، اثنتان وعشرون (22) سفينة محمّلة بالعتاد، إلى ميناء مليلية، وسار صالح ريس برا على رأس ثمانية (8) آلاف مقاتل، وانضم إليه أتباع أبو الحسون الوطاسي.

لكن في الطريق نحو فاس، اصطدم الجيش التركي مع جموع الشريف في معركة عنيفة[23]، جعلت المدافعين يتراجعون إلى أسوار فاس، حيث لملموا قوتهم، لكنهم هزموا للمرة الثانية، وأُجلوا عنها بالقوة. ودخل الجيش التركي المدينة في 8 جانفي 1554م،

وأعيد الوطاسي إلى الحكم تحت حماية الدولة العثمانية، وحماية الصالح ريس نفسه، الذي سهر على تنظيم شؤون المملكة مدة أربعة أشهر، قبل أن يعود إلى الجزائر.

لكن بمجرد خروجه من فاس، لم يلبث طويلا حتى عاد السعدي، ودخل فاس في 23 سبتمبر 1554م، لتعود الأوضاع كما كانت من قبل[24].

المطلب الثاني: التحالف الثنائي ضد الإيالة:

ضاق السعدي مرارة الهزيمة داخل أراضي دولته، وأدرك أن محاولته لاحتلال الجزائر، إنما هي ضرب من المحاولات العابثة، التي حتما ستكلفه خسائر فادحة، والتي قد تؤدي به إلى فقدان مملكته، وأي تحرك ضد الجيش الجزائري العثماني، لا بد أن يكون تحركا عنيفا، وواثقا من نجاحه. وبما أن مملكته لم تكن القوة الوحيدة التي دخلت في حرب مع إيالة الجزائر، فقد قرر الاستعانة بالإسبان لطرد الأتراك.

افتتح محمد الشيخ المفاوضات، بدعوته للوفد الإسباني، الذي انطلق من ميناء مالقة في 26 أفريل سنة 1555م، ووصل إلى ميناء سبتة في التاسع والعشرين من نفس الشهر، ومنها توجه إلى تيطوان ثم إلى فاس.

بدأ الطرفان المفاوضات في 15 ماي، وطلب الطرف الإسباني التنسيق مع حاكم مدينة وهران، من خلال إرسال وفد إلى المدينة المذكورة، للتفاوض في شأن الجزائر، كما طلب الشريف من الوفد، أن يمده الإمبراطور الإسباني بجيش مؤلف من عشرة (10) آلاف جندي من رماة البنادق، ليضمهم لحملته البرية.

وبعد موافقة الطرف الإسباني، تناقش الطرفان في مصير الجزائر بعد احتلالها، فجاء مقترح السلطان السعدي المتواطئ غريبا، يقضي بهدم مدينة الجزائر، وتشريد أهلها، دون التعرض للمسلمين بالقتل أو الأسر، وأما الأتراك فيعاملون كأعداء، وهذا كمُصوّغ، ليحصد السيف رقابهم، وفي هذا بيان إلى قوة مدينة الجزائر، ومدى إيلامها للإسبان والسعديين[25].

وفي ظل هذه الفرصة التي لم يكن يحلم بها ملك إسبانيا نفسه، فإن هذه الحملة احتاجت لدعم مالي ضخم، ليُضمن دفع أجور الجيش والمرتزقة، لذلك تكفل الشريف بعرض دفع نفقات الحملة ذهباً، بداية من أول يوم ينزل فيه الجيش الإسباني، حتى نهاية الحملة. وفي المقابل طلب الإسبان إيداع مبلغا من المال قدره مائة ألف مثقال من الذهب في المدن التي تحتل، لكن الشريف اشترط تسليمه رهائن من أبناء حاكم مدينة وهران كضمان لتسليم المال، وفي المقابل كان حاكم وهران يترجى إمبراطوره لكي يرسل أحد أبنائه رهينة، ليعجل الطرف الآخر في إرسال الذهب، لدعم الحملة ضد الجزائر برا وبحرا، لكي يقع جيش الجزائر بين ناريين[26].

وفي الوقت الذي كانت تجري فيه المفاوضات حتى تاريخ مغادرة الوفد إلى إسبانيا في 18 جوان، كان حاكم إيالة الجزائر يراقب سير المخطط، وقد بلغته الأخبار، وتسربت إليه عبر التجار اليهود، الذين تسربت إليهم هذه المعلومات الحساسة، أو تعمّد المترجم اليهودي بين الطرفين تسريبها، حماية لمصالح الذميين من بني جلدتهم في المغرب وشمال إفريقيا.

وهنا ينبغي الإشارة إلى أن أولئك اليهود كانوا يدركون تأثير هذه الحملة على مصالحهم التجارية، كما أنهم لم ينسوا تنكيل الإسبان بهم، وجرّهم إلى محاكم التفتيش، التي أذاقتهم إلى جانب المسلمين، مُرّ العذاب لتنصيرهم، وقد استفادوا مما وقع، فلا ينبغي أن تعاد عليهم الكَرّة في شمال إفريقيا، بعدما وجدوا بديار المسلمين سبل الأمن والرخاء[27].

وبعد مشاورات قام بها بيلرباي الجزائر مع السلطان سليمان، توصل الأتراك إلى أن ملك المغرب دون الإسبان ضعيف، لا يمكنه حتى أن يهدد تلمسان، ولا الدفاع عن نفسه، خاصة بعد الهزيمة التي لحقته في فاس، وأن أيّ تحرك مسيحي ضد الإيالة، لا بد أن يكون مرتكزا على حصون وهران وموانئها، الذي سيكون المحطة الأخير في غزو مدينة الجزائر.

ولقطع أي اتفاق بين الطرفين، أعطى السلطان أمرا لصالح ريس، أن يبدأ بالإسبان في وهران، قبل أن تصل سفنهم وجحافلهم برا إلى أسوار مدينة الجزائر، ولا بد من الضغط عليهم، لكي يحوّلوا اهتمامهم للدفاع عن أنفسهم، وهذا الأسلوب من التكتيكات العسكرية، التي ينقل بها مدافع الحرب إلى أراضي العدو، لشغله قدر الإمكان، وتقويض مخططاته.

أرسل السلطان سليمان أربعين (40) سفينة، على متنها ستة آلاف جندي، لدعم القوات الزاحفة على وهران، وجمع صالح ريس ثلاثين (30) سفينة، على متنها أربعة ألاف مقاتل. سارت هذه السفن بمحاذاة الساحل، ولحقت بها قوات برية من فرسان العرب وزواوة، مؤلفة من عشرة آلاف جندي، وما هي إلا أيام، حتّى وجد الغزاة في وهران أنفسهم محاصرين بجيش ضخم، يجتاح الأسوار والحصون.

وفي خضم الحصار المشدّد، كاد الجيش الجزائري أن يفتح وهران ويدخلها، لو لا القدر الذي سبق بأن يُفَكَ الحصار، ولينطلق علج علي- الذي تولى الحكم بعد وفاة صالح ريس في شهر جوان سنة 1556م بطاعون قبل خروج السفن من مدينة الجزائر- مبحرا لمساندة البحرية العثمانية ضد الحلف المسيحي، الذي اجتمع للإطاحة بالأسطول الإسلامي[28].

المطلب الثالث: ظروف اغتيال محمد الشيخ السعدي:

ما كادت أخبار فك الحصار عن وهران، وإقلاع الأسطول نحو البحر، لدعم السلطنة العثمانية ضد القوى المسيحية، وعودة حسان قورصوه نحو مدينة الجزائر، حتى تشجع السعدي، وأدرك أن الطريق أمامه بات ممهدا مرة أخرى نحو تلمسان، لانشغال قادة الإيالة، فدخلها، ونصّب عليها ابن غانم زعيم قبائل بني راشد الموالي للإسبان، ورغم دخول القوات المغربية المدينة، إلا أنها فشلت في اقتحام حصن المشور، بفضل بسالة القوة المدافعة، المنتظرة للمدد من مدينة الجزائر[29].

بعد اطمئنان السعدي على قواته في المدينة المحتلة، عاد ليباشر إدارة دولته في صيف سنة 1557م، وكان من عادته الانتقال في محلته، مصطحبا جيشا صغير لمراقبة أوضاع البلاد، لكنه اغتيل في منطقة "آكلكال" بـ"تارودانت"، من طرف عدد من الأتراك، الذي اندسوا في حرسه وخدمه، وكادوا له مدة من الزمن.

بدأت خيوط مؤامرة الاغتيال المدبر لها، والمخطط لها تخطيطا جيدا، مباشرة بعد استعادة محمد السعدي لمدينة فاس سنة 1554م، ومقتل أبو الحسون الوطاسي، فالخطأ الفادح الذي ارتكبه السعدي، هو ضمه لأربعمائة (400) تركي من حملة صالح ريس لدعم الوطاسي، الذين استسلموا له، فقربهم منه، وجعلهم عسكره.

ففي تلك السنة، وصل مبعوث من السلطان سليمان القانوني إلى سلطان المغرب أبي عبد الله، حاملا رسالة مفادها تهنئته بدخوله فاس، واستقامة الملك له، كما طلب فيها الدعاء لسلطان العثمانيين على المنابر، وصك العملة باسم سليمان، كنوع من الاعتراف والتبعية غير المباشرة، مما جعل السعدي يُغلظ في الردّ، وينعت العثماني بسلطان "الحوته"، أي سلطان القوارب.

وبحسب بعض المصادر، فإن إساءة ملك المغرب للسلطان العثماني، كانت سببا من أسباب الاغتيال، لكن هذا السبب لا يرتقى لأن يكون مؤثرا عند سلطان، عُرف عنه عدله وجهاده لأجل نصرة المسلمين، حتى يريق دم مسلم، لأجل كلام واهي، لا يلقي له بال، وإن كان صحيحا ما ذكرته المصادر، ومنها ما ذكره صاحب الاستقصا، لِمَ انتظر سليمان القانوني مدة ثلاث سنوات ليأمر بتنفيذ المخطط؟ ولِما يُقدم على اغتياله بهذه الطريقة، وهو قادرٌ على غزوه في أرضه؟.

لكن الحقيقة عكس ما تشير إليه المصادر، ويبدو أنها سكتت عن شيء، وأبدت حججا واهية، والراجح أنّ التفكير بالاغتيال الفعلي، بدأ بالظهور جديّا بعد إقدام محمد الشيخ على التفاوض مع الإسبان، والتحالف معهم ضد الجزائر، من أجل تدميرها، وتسليم شمال إفريقيا للقوة المسيحية بسواعد مغربية.

فبعد فك الحصار عن مدينة وهران في صيف 1556م، لأجل التحاق الأسطول الجزائري بالبحرية العثمانية لدعمها، وتسلسل الأحداث، كان من غير الممكن توجيه حملة عسكرية نحو المغرب، التي أراد منها سليمان القانوني غزو مملكة مراكش، وإنهاء حكم السعديين، كما لا يمكن أن يقف السلطان موقف المتفرج، وهو يرى الطرف الآخر، يهدد إيالته ورعاياه المسلمين، فأشار عليه الصدر الأعظم، باستئجار اثنا عشر رجلا من الفتاك، وتزويدهم بما يحتاجونه، ومنحهم اثني عشر ألف دينار، ووجّه معهم رسالة إلى رئيس الإنكشارية (حرس محمد الشيخ من الترك) صالح الكاهية سرا، يطلب منه العون، وتقريبهم إلى السعدي مقابل جائزة مالية[30].

دخل المرتزقة عبر مدينة الجزائر، وتزوّدوا فيها بما يحتاجونه من لوازم السفر، وتوجهوا نحو مراكش، مبدين الفرار من السلطان العثماني، واتصلوا بالكاهية التركي، الذي قرّبهم إلى ملك المغرب، وأثنى عليهم عنده، وبيّنَ رغبتهم في خدمته.

ولاشك أن محمد الشيخ ليس بالملك الساذج، لينخدع بمثل هذه الحيل، وهو مدرك أنه في حرب مع الأتراك، إنّما أراد اختبار مدى صدق نواياهم، كما جرت العادة أن يتخذ ملوك المغرب، بمن فيهم الزيانيين، حرسا من المرتزقة من الإسبان[31]. فترجيح استعمال المرتزقة من المسلمين في الحرس، أسلمُ من ناحية الشرع، وإضافة على ما تقدم، رغبة محمد الشيخ في الاستفادة منهم في إدارة شؤون مملكته، وليستعملهم في قادم الحروب ضد الجزائر، وتوظيف صِلاتهم مع بعض أتراك الإيالة، طمعا في نقل الأخبار إليه.

لما اطمئن السعدي لصدق نواياهم، ضمّهم إلى محلّته المتنقلة، فاغتنموا خروجه نحو "تارودانت"، فولجوا إلى خيمته، وقتلوا حرسه، وقطعوا رأسه، وبفضل تخطيطهم المحكم، تمكّن بعضهم من الفرار نحو الجزائر، ومنها إلى اسطنبول، ليضعوا رأس محمد الشيخ بين يدي السلطان سليمان، الذي أمر بتعليقه على باب قلعته[32].

وبعد وصول خبر مقتل محمد الشيخ للجزائر، تحرك حسن بن خير الدين من الجزائر نحو تلمسان، لطرد السعديين عنها، قبل أن يستقيم الأمر لعبد الله الغالب، فتمكن بيلرباي الجزائر من إنجاد الأتراك المتحصنين بقلعة المشور، وأجلى السعديين وتتبعهم إلى ما وراء ملوية، حتى شارف على مدينة فاس، ليصطدم مرة أخرى مع جيش عبد الله في موقعة وادي اللبن، على بعد 311 كم غرب تلمسان، ومسافة 45 كم شمال شرق فاس، وذلك في اليوم الرابع من شهر أفريل 1558م.

غير أن هذه المعركة لم تحسم شيئا، فرجع حسن بن خير الدين في اليوم السادس من شهر أفريل مع جيشه عبر البحر، بعد وصول أخبار تفيد بعزم الإسبان التحرك ضده عبر البرّ لقطع الطريق عليه وعلى جيشه. ولقد ألزم حسن بن خير الدين السعديين حدودهم، وإن كانت هنالك بعض المراجع تذكر هزيمته وهربه، معتمدة على بعض الروايات الأجنبية[33]، وردنا على ذلك أنه لا يمكن أن يَغفل مؤرخو الدولة السعدية عن ذكر انتصار كهذا لصالحهم، ثم كيف يتسنى له الانسحاب نحو البحر، الذي تفصله بينه وبين موضع الواقعة مسافة 105 كم بهذه السهولة.

إنّ الغرض من تدبير مؤامرة الاغتيال، لا يخدم مصالح السلطنة العثمانية كدولة عظمى فقط، بل يهدف بالدرجة الأولى إلى إضعاف الوجود الإسباني في المنطقة، وعزله بإبعاد الشركاء المحتملين عنه، والمتمثلين في بعض حكام المغرب، كما يهدف إلى كسر شوكة مثيري المشاكل في المنطقة الحدودية، بمن فيهم محمد الشيخ، الذي لقي حتفه، بسبب تمسكه بفكرة طرد الأتراك من المغرب الأوسط، وتدمير إيالة الجزائر، متجاهلا بذلك المحظورات الشرعية، وخطر ذلك على مستقبل العقيدة الإسلامية في شمال إفريقية، مقابل الحفاظ على عرشه، ولو على حساب قضية مسلمي الأندلس، الذين وجدوا في العثمانيين سندهم الوحيد، طوال سنين في وجه الاستبداد الإسباني، فكيف ينسى محمد الشيخ كل ما سجله التاريخ، ويجعل من مُلكه واعتلاء العرش الهدف الأسمى والأوحد، والمغرب الأقصى في مرمى أطماع التعصب المسيحي!.

خاتمة:

مع نهاية منتصف القرن 16م، شهدت المنطقة الغربية للجزائر نوعا من الاستقرار، بفضل جهود الجزائريين الرامية إلى إبعاد التدخل الأجنبي المسيحي والمغربي، وذلك انطلاقا من عدد من القناعات، منها:

– معرفة قادة الجزائر أن المنطقة الحدودية منطقة يتوقف عليها وحدة القطر، وأنها مُكوّن سياسي هام، يمنح الدولة الشرعية بوراثة مملكة بني زيان، ما يُفضي إلى كسب تأييد القبائل العربية، وهذا مؤدٍ بدوره إلى الاستفادة من القدرات الاقتصادية للمنطقة.

– الإدراك التام بأن استكمال تحرير وهران، مرهون باستقرار تلمسان، التي تعتبر قاعدة دعم لتصفية الاحتلال الإسباني، وأن بقاءه خطِر، يَقوى على حساب الإيالة، مهدد لوجودها.

– كانت استراتيجيات حكام إيالة الجزائر فعّالة ضد التدخل المغربي، إلاّ أنها اتخذت منعرجا خطيرا، ساهم في خدمة مصالح القوى المسيحية بطريقة غير مباشرة، وتبديد قوة المسلمين، نتيجة لعدد من القرارات الخاطئة من الطرفين (الجزائري والمغربي)، ومن ذلك قرار صالح ريس دعم أبو حسون الوطاسي ودولته المتهالكة، بدل محاولة التفاوض مع السعديين واستمالتهم، وكذا خطأ محمد الشيخ السعدي بالتآمر ضد الإيالة، والذي كان سببا في اغتياله، فكانت هذه الحادثة من الأسباب التي عمّقت العداء بين حكام المغرب الأقصى وحكام إيالة الجزائر، لو لا تدارك العثمانيين لقراراتهم الخاطئة، من خلال دعم ملوك المغرب لاحقا، في الحفاظ على ملكهم، وبذل سبل التعاون ضد الخطر الإسباني والبرتغالي، خاصة في عهد أحمد المنصور الذهبي.

الهوامش:

[1] الهادي قطش، **أطلس الجزائر والعالم**، الطبعة الأولى، دار الهدى، عين ميلة، الجزائر، 2013م، ص 31.

[2] حسن الوزان، **وصف إفريقيا**، ترجمة محمد حجي، محمد الأخضر، الجزء الثاني، الطبعة الثانية، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1983، ص ص 15- 43.

[3] أحمد توفيق المدني، **حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وإسبانيا 1492– 1792**، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1968، ص 101.

[4] المرجع نفسه، ص 102.

[5] قطش، مرجع سابق، ص 35.

[6] علي شعوة، "المنشآت العمرانية للدولة الزيانية"، **مجلة قبس للدراسات الإنسانية والاجتماعية**، المجلد 01 ،العدد 02 ، ديسمبر 2017م، جامعة الوادي، الجزائر، ص 52.

[7] الوزان، المصدر السابق، الجزء الثاني، ص 20.

[8] عبد العزيز فيلالي، **تلمسان في العهد الزياني**، الجزء الأول، دار موفم للنشر والتوزيع، الجزائر، 2002، ص 136. وأنظر أيضا: الهادي قطش ، **أطلس الجزائر والعالم**، دار الهدى، الجزائر، 2013، ص 47.

[9] عادل سعيد بشتاوي، **الأمة الأندلسية الشهيدة**، الطبعة الأولى، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، د.ت، ص 140.

[10] « L'AGRÈMEVT DU LECTEUR (Notice ،ABDELKADER El MECHERFI historique sur les Arabas soumis aux Espagnols pendant leur occupation d'Oran) ». Tr : Marcel Bodin, **REVUE AFRICAINE**, 1924, VOLUME 65, pp 97-260.

[11] خير الدين بربروس، **مذكرات خير الدين بربروس**، ترجمة محمد دراج، الطبعة الأولى، شركة الأصالة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2010، ص ص 186-192.

[12] بربروس، مصدر سابق، ص 86.

[13] المصدر نفسه، ص ص 88- 92.

[14] نفسه، ص 95.

[15] محمد التنسي، **تاريخ بني زيان ملوك تلمسان**، تحقيق محمود آغا بوعياد، دار موفم للنشر، الجزائر، 2011، ص 153.

[16] أسماء أبلالي، "التحرشات الإسبانية على سواحل الجزائر خلال القرن 10هـ/ 16م: قراءة في الدوافع والنتائج"، **مجلة روافد للبحوث والدراسات**، العدد الثاني، جامعة غرداية، 2017م، ص 47.

[17] أحمد النّاصري، **الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى**، تحقيق جعفر ومحمد الناصري. الجزء الخامس، دار الكتاب. الدار البيضاء. المغرب، 1997، ص ص 20- 24.

[18] المصدر نفسه، الجزء الخامس، ص 31.

[19] H.-D Grammont, **Histoire d'Alger sous la domination turque (1515–1830)**, E. Leroux, Paris. France, 1887, p 76.

[20] عبد الهادي التازي، **التاريخ الدبلوماسي للمغرب من أقدم العصور إلى اليوم**، المجلد الثامن (عهد السعديين)، مطابع فضالة، المحمدية، المغرب، 1986، ص 21.

[21] الناصري، المصدر السابق، الجزء الخامس، ص27. وأنظر أيضا: محمد بن عسكر، **دوحة النّاشر لمحاسن من كان بالمغرب من مشايخ القرن العاشر**، تحقيق محمد حجي، الطبعة الثانية، دار المغرب للتأليف والنشر، المغرب، 1977، ص 126.

[22] المدني، مرجع سابق، ص 340- 341.

[23] التازي، المرجع السابق، المجلد الثامن، ص 23.

[24] حسين ابن المفتي، **تاريخ باشوات الجزائر وعلمائها**، تحقيق فارس كعوان، الطبعة الأولى، دار الحكمة، الجزائر، 2009، ص 40.

وأنظر أيضا: Grammont, op. Cite, p 80

[25] المدني، مرجع سابق، ص 360 -361.

[26] التّازي، المرجع السابق، المجلد الثامن، ص ص 131- 133.

[27] المدني، المرجع السابق، ص ص 359- 364

[28] المدني، المرجع السابق، ص 366. وأنظر أيضا: ابن المفتي، المصدر السابق، ص 47.

[29] المدني، المرجع السابق، ص 368.

[30] محمد الإفراني، **نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي**، تحقيق عبد اللطيف الشّادليّ، الطبعة الأولى، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، المغرب، 1998، ص 93- 94.

[31] عبد الرحمان بن خلدون، **تاريخ ابن خلدون**، الجزء السابع، دار الفكر، بيروت، لبنان، 2000، ص 113.

[32] مجهول، **تاريخ الدولة السعدية التكمدارتية**، تقديم وتحقيق: عبد الرحيم بنحادة، الطبعة الأولى، دار تينمل للطباعة والنشر، مراكش، 1994، ص 31- 32.

[33] التّازي، المرجع السابق، المجلد الثامن، ص 35.